

التراث والكتابة التاريخية

إطلالة على العلاقة من خلال "المقدمة" لابن خلدون

(732 - 808هـ/1332 - 1406م)

د.عبد الرحمن بلاغ

جامعة طاهري محمد بشار

البريد الالكتروني: bellagh.abderrahmane@gmail.com

الملخص:

ساهم المؤرخ ابن خلدون عبد الرحمن في دفع التراث إلى الواجهة، وجعله مجالاً للاشتغال العلمي، وفق مقاييس الكتابة التاريخية الواردة في "المقدمة"، ومن ثمة يبرز المجال العلائقي بين التراث كمعطى من الزمن الماضي، والكتابة التاريخية التي تعتبر إعادة لبنائه ببصيرة الحاضر، قصد تحقيق المغزى من دراسة التاريخ.

الكلمات المفتاحية: التاريخ، الكتابة التاريخية، التراث، الأخبار، الحاضر، المقدمة، إحياء التراث، الرواية الضعيفة.

Abstract:

Historian Ibn Khaldoun Abdul Rahman contributed to the positioning of heritage to the fore, and make room for scientific research, according to the standards of historical writing in the " Al-Muqaddimah", in which he highlights field relational scope between heritage as data about the past on the one hand, and, on the other hand, historical writing, whose re-building with present foresight, aims to achieve the significance of the study of history.

Keywords: history, historical writing, heritage, news, present, Al-Muqaddimah, Heritage Revival, weak narration.

مقدمة :

إن التراث والكتابة التاريخية، يشكلان المادة التي تبني فهمنا للحاضر، فالأول يمثل المادة الأولية والثاني يمثل إنتاج "صناعة المؤرخ"، والمؤرخ بحكم مهمته الحضارية لا يمكنه الاستغناء عن التراث ولا عن صناعته، ومن ذلك تطرح لنا ضرورة فهم العلاقة بين هذه الأطراف.

إن طرحنا "المقدمة" كنموذج لفهم العلاقة بين التراث والكتابة التاريخية،
يخضع لعدة اعتبارات منها:

اعتماد ابن خلدون¹ في "المقدمة" على التراث المكتوب، وبسطه لمواصفات الكتابة التاريخية، التي ينبغي في تقديره أن تصل إلى تلك الغاية البارزة من علم العمران البشري الغزير الفائدة

- كون المقدمة تحتل مكانة بارزة عند المفكر والمؤرخ ، باعتبارها خزانة علوم اجتماعية وسياسية واقتصادية وأدبية.

- والاعتبار الثالث، يتمثل في نقص الدراسات على الأقل في محيطنا الثقافي، التي تتناول أثر التراث في كتابات ابن خلدون.

نظرا لهذه الأهمية، نعتقد أن التعريف بالتراث ونقده وتبليغه للمتلقي بصفة أكاديمية، تعد إحدى أوجه المحافظة عليه وآلية من آليات الحماية له، واثمينا لمسعى الحماية والتأمين له والتي تقوم بها بدرجة أكبر علوما أخرى، في سعيها للحفاظ على التراث لذاته. وبالتالي فالإشكالية المطروحة للنقاش، إلى أي مدى تتجاوب الكتابة التاريخية مع التراث؟ وهل يمكن اعتبار العلاقة علاقة استغراق، أم وقفة تأمل واستنباط؟

من هنا سنحاولنا معرفة طبيعة تلك العلاقة التي تربط الكتابة التاريخية وأقصد هنا الكتابة الأكاديمية بالتراث، مروراً بمناقشة مفهوم التراث وأهميته، ثم

"المقدمة" وما تضمنته من علاقة بين التراث والتاريخ، كما سنطرح قضايا علاقة التراث بالكتابة التاريخية من منظور تراث آل خلدون.

1- مفهوم التراث وأهميته:

التراث من الناحية اللغوية، مصدر للفعل ورث يرث إرثاً وميراثاً، ومن ذلك قوله تعالى (وتأكلون التراث أكلاً لما)²، حيث تفيد كلمة التراث في تفسير الجلالين كل ما تركه الميث لورثته، ثم أصبحت تدل على كل مخلفات البشر الحسية والمعنوية.

من الناحية الاصطلاحية، إن المفاهيم التي وقفنا عليها تجمع على أن التراث هو الجانب الموروث اجتماعياً من الثقافة التي تشكل وعينا بالحاضر، وبذلك يدخل ضمن هذا الإطار كل ما تركه السلف للخلف، سواء كان شواهد مادية ملموسة من مبان وأدوات مثلاً، أو معنوية من آداب وعلوم وفنون وأفكار وعقائد وسلوك.

ويصنف التراث إلى تراث رسمي (مكتوب)، وشعبي (شفهي) متوارث ومجهول المنتج، ومنه التراث المادي والمعنوي والقولي والفني والمعرفي والحركي، وإن كان هذا التصنيف يطرح التراث كنص، فإن الباحث محمد أمين العالم، ينظر إلى التراث من حيث وجوده وكيونته وتفاعلنا معه فهو (ماضي أي سابق لوجودنا، ولذلك فحقيقته في ذاتها مشروطة بمدي معرفتنا بها وطبيعة موقفنا منها وتوظيفنا لها، أي أن التراث يبقى أثر حتى وإن بقيت معالمه ماثلة أمامنا على نحو مادي أو معنوي)³.

نستنتج من ذلك أن التراث يبقى عديم الأهمية صامتاً، إذا لم يكن له حضور وتفاعل مع وعينا وحاضرنا، هذه التفاعلية والروح التي تعطى للتراث تبعث من عمل المؤرخ في إعادة بناء التراث بشكل يضمن "احترام" عقل المتلقي،

ويساهم به في تجميع آليات الحركية الاجتماعية. فالتراث إذا هو قراءتنا له وموقفنا منه وتوظيفنا له ، هذا الموقف الذي يعد موقف من الحاضر ، لا موقف من الماضي فحسب ، وبذلك يؤكد الباحث طه عبد الرحمن أنه (لا سبيل إلى الانقطاع عن العمل بالتراث في واقعنا ، لأن أسبابه مشغلة على الدوام فينا ، آخذة بأفكارنا وموجهة لأعمالنا ، متحركة في حاضرننا ومستشرفة لمستقبلنا)⁴ .

إذا عدنا إلى المقدمة ، لا نجد ابن خلدون يذكر مصطلح التراث في "المقدمة" ، وإنما نجد عبارات وكلمات دالة على معنى التراث المعنوي ، مثل : الأخبار ، وكل ما وصلنا من تدوين عن الأمم السابقة لقوله : (أدوها إلينا كما سمعوها)⁵ ، كما يردد في المقدمة عدد من الأفعال الدالة على اطلاعه على التراث الشفوي والمكتوب مثل : كلمة قال⁶ ويقال ، بلغنا ، إنك تسمع في كتب الحكماء ، حكى المؤرخون ، وأخبرني فلان.

تشير أغلب الدراسات، إلى ضرورة "إحياء التراث" سواء في بناء النسق المعرفي للحاضر وفهمه، بشكل يبنى هوية المجتمع، ويمكنه من الاستمرارية، في ظل عالم متغير ومضطرب. كما أنها في الوقت الذي تمثل فيه خطوة إلى الماضي، فإنها تمثل انطلاقة رزينة نحو المستقبل، مثل الرياضي الذي يضغط - نحو الأسفل - على البساط المتمدد وكلما استمر بالضغط والقفز سما نحو الأعلى، فعملية "العودة الواعية" للتراث تضيف للمجتمع عمراً جديداً، وتوسع له أفق التصور وتزيد الثقة في الأنا الجمعي.

إن القرآن الكريم يصرح بأهمية الوقوف على أنباء وأخبار الرسل لتثبيت قلب النبي(ص)، وبيان للحق بهدف القيام بأعباء الرسالة، كما أن في القصص القرآني موعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون بالله ورسوله، قال تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} ⁹. يدفع أصحاب العقول إلى أخذ العبرة والحكمة من التاريخ، لكنه على ذوي العقول وليست مشاعة، قال تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ} ¹⁰ وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} ¹¹.

2- "المقدمة" .. التراث.. التاريخ

قبل ضبط مفهوم الكتابة التاريخية، التي هي صميم "صناعة المؤرخ"، علينا أولاً تحديد مفهوم التاريخ، وفي هذا الإطار لا أرغب في سرد المفاهيم والمعاني، لأن الكلام فيها شطط، وفي العموم تكاد تتفق المصادر

التاريخية¹² في المعنى، وعليه سأركز على مفهوم ابن خلدون للتاريخ والكتابة التاريخية. إذ يطرز ديباجة المقدمة بـ "مقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها".

إن ابن خلدون، يوجه سبأته إلى كل مهتم بحقل التاريخ ويحمله مسؤولية ما يدون بقوله : (إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ يوقننا على أحوال الماضين من الأمم وأخلاقهم والأنبياء وسيرهم والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الإقتداء)^{3 1}، عندما نقرا مفهوم ابن خلدون للتاريخ، نجد أنه يحيط التاريخ بنوع من القداسة، فإذا كانت الغاية من التاريخ مقدسة، فلن يتأت ذلك إلا من خلال منهج ومنطلق شريف بعيد عن حزازات النفس، كما نجد أنه يبرز الجانب المبهر في التاريخ، الذي يقود المؤرخ والقارئ إلى الاقتداء تبعاً للفوائد المستخلصة من الوقائع الحاصلة والواردة إلينا، وما عدا ذلك فهو "ليس من التاريخ"، أو لا يرقى إلى "قداسة التاريخ" المرجوة عند ابن خلدون، وذلك يقودنا إلى إشكاليات أخرى تتعلق بالتاريخ هل هو تاريخ وقائع أم أخبار، والتي عالجها الجابري في كتابه "مفهوم التاريخ"، الذي جاء فيه إن (.. التساؤل حول مفهوم التاريخ أمر جوهري وتافه في آن. هذا ما قاله ابن خلدون وهذا ما نؤكد اليوم.. جوهري لأنه قائم أينما اتجه الفكر، وتافه لأن منفعته غير واضحة لكل فرد متخصص، الخطاب موجه في ظاهره إلى المؤرخ، لكنه في العمق يستهدف كل مفكر)^{4 1} هكذا يؤكد العروي على أهمية البعد الإبستمولوجي لمفهوم التاريخ بالنسبة للمفكر قبل المؤرخ، ما دام التاريخ في حقيقته هو المجال المفضل للفكر والتفكير العامين.

يختلف مؤلف ابن خلدون عن بقية مصنفات الاخباريين والمؤرخين السابقين فهو من الصفحات الأولى لـ "خطبة الكتاب" يبرز أهمية التاريخ ويعطي

مقدمة ابستمولوجية له، ثم يبدأ في محاسبة نقدية للمؤرخين، ويطرح البديل للكتابة التاريخية، وكأن الكتاب أنجز خصيصاً لإحداث ثورة في مجال الكتابة التاريخية إذ يقول: (ولما طالعت كتب القوم، وسبرت غور الأمس واليوم...أنشأت في التاريخ كتاباً)¹⁵، وبذلك يوجه ابن خلدون خطاباً محدداً للمتطفلين والبلدء، ليقول لهم: إن ميدان الكتابة التاريخية قد تجاوزهم، فلا يدخل حقل التاريخ إلى من وعى ضوابطه، و"عمل بمقتضاها"،

أن هذا الطرح الخلدوني نابع من مشاهدته المبررة لما عصفت بالعالم الإسلامي خلال القرن 8هـ/14م في شرقه وغربه، إذ شهد تراجعاً مريباً، إن على المستوى السياسي أو الفكري، وفي ذلك يتحسر ابن خلدون ويقول: (وكأنني بالمشرق قد نزل به ما نزل بالمغرب، ولكن على نسبة ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فبادرو بالإجابة)¹⁶، لكن ما دونه ابن خلدون يخالف الكثير من الرؤى، التي تجعل الإنتاج المعرفي صورة عاكسة لواقعه، فمالك بن نبي يؤرخ لتاريخ الفكر ويجعل "عالم ما بعد الموحدين" عصر اجترار وجمود.

في هذا السياق التاريخي، ورغم الصورة الباهتة لعصر ابن خلدون "عالم ما بعد الموحدين"¹⁷، تبرز "المقدمة" ذلك التفرد في الطرح الذي تميز به مؤرخنا، الذي لم يكن يبتغي به مال أو جاه عند خليفة أو أمير، وإنما حاك فيه نفسه ما يحصل في عصره، فاستغاث التاريخ يطلب منه الدروس والعبر، التي تمكنه من فهم الحاضر¹⁸، فقدم لنا نظرية ابستمولوجية منهجية، أعطت للتاريخ قيمة مضافة، نقلته من مستوى فن تنمو فيه الأقوال، إلى مستوى العلم القائم على النظر والتحقيق والتعليل، على حد تعبير الجابري¹⁹.

هو كل الابداع، فكما أن الطيبات ذات مسار تراكمي في انتاجها للمعرفة، فكذلك التاريخ هو بحاجة لاستكشاف التراث لإضاءة شوارع الظل في الكتابة التاريخية. إن عملية التنقيب عن التراث واستكشافه، عملية مضيئة ومعقدة في الزمان والمكان، بحكم تعدد اسهامات العلوم في هذا الإنجاز، لذلك نجد ابن خلدون قد وضع قوانين محددة لجعل التراث المكتوب والمسموع، مادة قيمة للكتابة التاريخية الـ "شريفة الغاية".

نفهم من مقدمة ابن خلدون، أن علاقة الكتابة التاريخية بالتراث علاقة عضوية متلازمة، لأن كل مؤرخ محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، أهمها المادة التي يستلهمها من التراث، دون أن تلغيها منه، بل تبقى تلك المادة مستمرة وفاعلة فيه إذ (لا سبيل إلى الانفكاك عن حقيقة التراث التاريخية، ولو سعى المرء إلى ذلك ما سعى)²⁴.

بينما التراث -في تقديري- ليس في حاجة إلى الكتابة التاريخية، إلا من منظور أولئك الباحثين في أسباب الوقائع أصحاب التحقيق والتنقيح، الذين يسعون إلى مسح غشاوة التظليل عن العامة، وفي حالة غياب هؤلاء سيعود إنتاج التراث بالكيفيات السابقة، مما يمهّد بالعودة إلى عصر ابن خلدون الذي عبر عنه كما سبق بقوله: (نادى لسان الكون في العالم بالخمبول والانقباض فبادروا بالإجابة).

عملية الانتقال من التراث، إلى التاريخ كـ "علم"، يقتضي عند ابن خلدون اخضاع التراث إلى مبادئ وقواعد، تنقل التأريخ من مجرد سرد أخبار "الأيام" و"الحوادث من القرون الأولى" سردا قصصيا، وما فيها من "الباطل" و"الروايات الضعيفة" و"ترهات الأحاديث" و"الغلط" و"الوهم"، إلى مستوى العلم، الذي يهدف إلى تبيان كيفية نشوء العمران الإنساني وكيف يزول؟.

تلك المبادئ والقواعد، نجدها ماثلة في المقدمة، عندما يتحدث ابن خلدون عن كتب الاخباريين القدامي، مثل ما نقله المسعودي عن جيوش بني إسرائيل، وما ذكره آخرون عن أخبار التبابعة ملوك اليمن والبربر من بلاد المغرب²⁵، وما نقله المؤرخون في سبب نكبة البرامكة من قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه²⁶، وما يذكره بعض الاخباريين من معاقرة الرشيد الخمر، بينما يذكر الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة، وكان يغزو عاما ويحج عاما²⁷. وما نقله ابن عبد ربه صاحب "العقد الفريد" عن سبب اصهار المأمون للحسن بن سهل في إبنته بوران التي كان يعاقرها الخمر، فيتساءل ابن خلدون في صيغة التأكيد على نزاهة المأمون وكذا بوران، فيقول: أين ذلك كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه؟ وأين ذلك من منصب إبنه الحسن وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف؟²⁸، وحسب ابن خلدون إن مثل هذه الحكايات كثيرة في كتب التراث و (كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة)²⁹.

- عارفا بقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الانساني ،
 - فهي تتغير ، وعوائد كل جيل هي تابعة لـ " عوائد سلطانه".
 - عالما باختلاف الأمم والبقاع
 - عارفا بالنحل والمذاهب
 - قادرا على قياس الغائب بالشاهد ، والحاضر بالماضي ، سواء في مظاهر
- الوفاق والخلاف وتعليل المتفق والمختلف منها

- مستوعبا للأحداث وواقفا على أصول الأخبار ولن يكون ذلك إلا بمعرفة أصول الدول والملل وأسباب حدوثها.
- قادرا على اسقاط الخبر المنقول على القواعد والأصول، فما وافقها كان صحيحا، وما عارضها فهو زائف.

حسب ابن خلدون أي محاولة للكتابة التاريخية، تخرج في منهجيتها عن هذا الإطار تدخل في نطاق السرد القصصي. إذ يقول يجب أن يتميز المؤرخ بـ: (حسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والغلط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فرما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق)³⁰.

إن محاولة إجابتنا عن هذه التساؤل الثاني مرتبط وبشكل كبير بما أورده ابن خلدون في "المقدمة"، والبيئة التاريخية والثقافية التي عايشها، ولذلك يمكن أن نصنف التراث الذي أثر في كتابات ابن خلدون إلى ثلاثة أنواع، وهي: التراث العائلي لابن خلدون، التراث الموسوعي، وتراث البيئة.

أما بالنسبة للتراث العائلي، فقد انفرد ابن خلدون في أسرة آل خلدون بخاصية التعاقب على الرئاسة العلمية والسلطانية³¹، في بلاطات عدة سلاطين متحاربين، لكن إذا نظرنا إلى تجربة وتراث أجداده من قبله نجدهم لم يسبق لهم أن جمعوا بين الرياستين، فجده كريب بن خلدون كان سياسيا محترفا، وخاض الثورة في الأندلس ضد الأمويين، في حين كان عمر بن خلدون مشتهرا في علوم الفلسفة، وقد توفي 449هـ..

رغم انتقال أسرة ابن خلدون إلى تونس في النصف الأول من القرن 7هـ لاعتبارات سياسية، ظلت محافظة على تقلد الرياستين، حيث تولى جده الثاني والأول الوزارة والقيادة في بلاط الحفصيين، في حين تفرغ أبوه للعلم والمعرفة، فكان كبير تونس في العلم والفتيا.

هذا التراث الذي يبدو أنه شفويا شكل تجربة ثرية، علمية وأدبية وفلسفية وسياسية، وفر لابن خلدون الأساس المعرفي والأدوات النقدية للقيام بتحليلاته اللاحقة في قلعة بني سلامة.

يرى سعيد الغانمي ، أن العصر الذي سبق عصر ابن خلدون (القرن 7هـ/13م) كان عصر الموسوعات بامتياز وهو ^{2 3} ، كما يعبر عنه إحسان عباس بوصفه أنه (فترة الخوف من الضياع) ، ومن طبيعة هذه المرحلة أن يكثر التسجيل والتدوين ويقل النقد ، لأن الهدف في ظل تلك الظروف الحفاظ على الهوية ^{3 3} ، ولعل ذلك هو الباعث الذي دفع الآبلي أستاذ ابن خلدون إلى القول : (إنما أفسد العلم كثرة التأليف) ^{4 3} .

لكن اعتماد ابن خلدون على الكثير منها، لم يكن من قبيل الاستسلام لموادها، وإنما أخضعها للكشف والنقد، مثل "نهاية الأرب في فنون الأدب" شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، و"مسالك الأبصار" لفضل الله العمري، و"صبح الأعشى" للقلقشندي، فضلا عن كتب الإخبارين القدامى مثل: ابن اسحاق، والطبري، وابن الأثير⁵³، وكتب العلوم مثل: "الشفاء والنجاة" لابن سينا و"رفع الحجاب" لابن البناء وهو كتاب في الحساب وكتاب الهندسة لابن أبي الصلت بعنوان "الاقتصار".

كما نشير إلى أن ابن خلدون يستشهد بتراث تاريخي وجغرافي ويشيد ببعضه، مثل كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي (287-

346هـ)³⁶، على الرغم من أن ابن خلدون عاش بعده بأربعمئة سنة، وهذا يعني أن التراث ليس كل يحمل أوهاما وأغاليط.

لقد كان هذا التراث المكتوب في عموميه، منهلاً معرفياً وفلسفياً لابن خلدون مكنه من استخراج سياسته الاجتماعية على حد تعبير طه حسين³⁷، وقد بلغ حد تأثر ابن خلدون بالتراث سواء المكتوب أو الشفوي، حتى أفرد فصلاً في المقدمة سماه (في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل)³⁸، وهذا كلام استأذه الألبلي كما مر بنا.

أما عن تراث البيئة التي عايشها ابن خلدون يقول غاستون لبون، أن عصر ابن خلدون: (تميز بظاهرة اجتماعية قلما نجد لها بارزة في مجتمع آخر، وهي التباين الصارخ بين أقصى أنواع البداوة وأقصى أنواع الحضارة. وقد أدى هذا التجاور بين هذين الشكلين المتطرفين من الثقافة إلى تعاقبهما في إقامة الدول والإمارات. وعاش ابن خلدون في كنف الصراع بينهما، بحاجة إلى حضارة أهل المدن، وعصية أهل البادية)³⁹، إن هذا الزخم المتناقض أحياناً من البيئة الاجتماعية، والذي تزاخم في فكر ابن خلدون دفعه إلى طرح الأسئلة الكبيرة المتعلقة بظهور الدول واختفائها، والعوامل المتحركة في ذلك، وهي التي حاول أن يجيب عليها في المقدمة، لكنه لم يكن يتصور إن تلك المحاولة المستلهمة عن وعي للتراث، ستوصله إلى ذلك الانجاز العلمي.

إذن هذا هو التراث الذي شكل فكر ابن خلدون، وهذا الفكر نفسه هو الذي أعاد تشيكل التراث في كتاباته التاريخية التي تحمل مضمونا فلسفياً، وهذا بعد أن سلط عليه آليات النقد النابعة أصلاً من الأخطاء التي اكتشفها بحذقه في التراث نفسه، وبعد تحليله لأخطاء التراث التاريخي، ووقف عند الأسباب المؤدية إليها، مثل: التشيع للآراء والمذاهب، الثقة بالناقلين والرواة، الذهول عن

المقاصد، توهم الصدق، الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع، تقرب الإخبارين لأهل السلطان، الجهل بطبائع الأحوال في العمران⁴⁰.

من هنا نتكشف لنا تلك العلاقة المتداخلة بين التراث والكتابة التاريخية في المقدمة، فهاهو ابن خلدون يقول: (إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها...واقفى الكثير عن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها) 41.

إن التراث بحاجة إلى تنقيب وتنقيح ، فالكثير منه لا يزال مجهولاً ، والكثير مما هو بين أيدينا لا بد أن يدخل لمخابر المؤرخين ليميزوا منه الخبث من الطيب ، وصولاً إلى استنتاجات بما يفيد علم العمران الإنساني ، لذلك يرى ابن خلدون في فن التاريخ أنه : (في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبانيها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة)^{2 4}.

الثرات إذن يفضي إلى الحكمة بمعناها التاريخي، إذا تم إخضاعه إلى النظر والتحقيق والتعليل وهي مهمة المؤرخ، الذي ينبغي عليه أن ينظر إلى التراث نظرة صدق لاتصديق، ويبعد الزيف ويبقي الحقائق. حتى يظل التراث المنقح معينا تشرب منه الأمة معرفة زلالا، تحافظ بها على هويتها في ظل عولة عابرة للتراث والتاريخ معاً.

الخاتمة :

بعد هذه الإطلالة نقف عند الاستنتاجات التالية :

رغم أن التراث يمثل الماضي، إلا أنه يبقى فاعلا وحاضرا ومتفاعلا مع وعينا وحاضرنا.

ابن خلدون ليس متماهيا في التراث ولا رافضا له، وإنما يقف أمامه موقف المتسائل الباحث عن الحقيقة

تعتبر الكتابة التاريخية من صميم "صناعة المؤرخ" لذلك نادى ابن خلدون بضرورة أن يتحمل القائمون عليها مسؤولياتهم، حتى تحقق "فائدة الاقتداء".

الانتقال من التراث إلى التاريخ كعلم، يحتم على المشتغلين بهذا الحقل الأخذ بضوابط الكتابة التاريخية

فكر ابن خلدون هو نتاج قراء واعية لعصره، ولميراث أسرته، ومعرفته الموسوعية.

في الختام، نرى أن الكتابة التاريخية ملزمة بتصفح التراث لاشيئ سوى لأنه يشكل المادة الخام لها، وابن خلدون العلامة نهل من ذلك التراث لكن الجديد أنه أخضعه لقوانينه، حتى وصل إلى نظريته في العمرانى البشري، والكتابة التاريخية الأكاديمية اليوم نعتقد أنها تمثل وعاء نظيفا ومنظفا، وحافظا ومحافظا على التراث.

قائمة المصادر والمراجع

- (1) القرآن الكريم
- (2) ابن خلدون عبد الرحمن : المقدمة، نسخة محققة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان 2004

- (3) محمود أمين العالم: مواقف نقدية من التراث، دار الفرابي، لبنان 2004
- (4) ناصر الدين سعيدوني، أساسيات منهجية التاريخ، دار القصة للنشر، الجزائر 2000
- (5) حسين عاصي، ابن خلدون مؤرخا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1991
- (6) الجابري، نحن والتراث قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي (ب - ت)
- (7) لويس جوتشلك، كيف نفهم التاريخ مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي، ترجمة: الدكتورة عائدة سليمان عارف والدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمة، نشر مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت 1966
- (8) عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، اللفاظ والمذاهب، المفاهيم والأصول، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الرابعة، 2005.
- (9) سعيد الغانمي: العصبية والحكمة، قراءة في فلسفة التاريخ عند ابن خلدون. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى 2006
- (10) علي حسن الخربوطلي: سلسلة نوابع الفكر العربي، المسعودي، دار المعارف. مصر (ب - ت) ص 40
- (11) طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط 2 (ب - ت)
- (12) هاري إلمر بانز، تاريخ الكتابة التاريخية، تر: محمد عبد الرحمن برج، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987.
- (13) محمد عزيز نظمى سالم: جدلية التاريخ والحضارة، الإسكندرية، 1996.

الهوامش:

- ¹ - ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، نسخة محققة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان 2004، ص 49. ويرى الجابري أن ابن خلدون (يستعير هنا مفهوم طبائع العمران من طبيعيات عصره، فكما أن لأشياء الطبيعة خصائص ثابتة هي لها بمثابة الطبع والمزاج... فكذلك العمران البشري أو الاجتماع الانساني، له هو الآخر طبائعه الخاصة وعوارضه الذاتية)، ينظر نحن والتراث، ص 313.
- ² - سورة الفجر الآية 19.
- ³ - محمود أمين العالم: مواقف نقدية من التراث، دار الفرابي، لبنان 2004، ص 10.
- ⁴ - طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية (ب - ت)، ص 19.
- ⁵ - ابن خلدون: المقدمة، ص 16.
- ⁶ - ويأتي هذا الفعل الماضي غالبا، مرتبط بصاحب القول وعنوان الكتاب.
- ⁷ - ابن خلدون، المقدمة، ص 17.
- ⁸ - نفسه، ص 39.
- ⁹ - سورة هود، الآية 120.
- ¹⁰ - سورة آل عمران، الآية 13.
- ¹¹ - سورة يوسف، الآية 111.
- ¹² - يعرفه هيرودوت (ق5 ق م) : هو (عرض للاستقصاء والمعرفة وهدفه ألا تندثر أعمال التاريخ). السخاوي 909هـ في كتابه، الإعلان بالتوخيخ لمن ذم التاريخ، بقوله: أنه يعني الإعلام بالوقت. واغلب المؤرخين المسلمين ركزوا في مفهومهم للتاريخ أنه سرد الوقائع، ورواية الأخبار، وضبط تواريخها، ومن ذلك ابن الأثير 630 هـ، الكامل، السيوطي 911 هـ، الشماريخ في علم التاريخ. ينظر ناصر الدين سعيدوني، أساسيات منهجية التاريخ، دار القصبة للنشر، الجزائر 2000، ص ص 8، 9.
- ¹³ - ابن خلدون، المقدمة، ص 21.

- 30 - ابن خلدون، المقدمة، ص 21.
- 31 - سعيد الغانمي: العصبية والحكمة، قراءة في فلسفة التاريخ عند ابن خلدون. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى 2006. ص 45.
- 32 - الحروب الصليبية في المشرق، وسقوط الكثير من المدن الأندلسية، ثم الموجة المغولية
- 33 - المرجع نفسه، ص 18
- 34 - نفسه، ص 35.
- 35 - وهي على الترتيب: السيرة النبوية، تاريخ الرسل والملوك، الكامل في التاريخ.
- 36 - ابن خلدون: المقدمة، ص 16.
- 37 - سعيد الغانمي: العصبية والحكمة، ص 19. ويرى هاري إلمر بانز(أن التفسير الاجتماعي للتاريخ بدأ على يد العلامة العربي ابن خلدون ... ويصف جيد نجز هذه النظرية ببراعة إذ يقول: إنها محاولة لتعليل أصل نشاط المجتمع في ضوء أسباب طبيعية وحيوية ونفسية وهي العوامل التي تشترك معا في عملية التطور) ينظر: تاريخ الكتابة التاريخية، ص 205. المفكر أرنولد توينبي، كتب عن ابن خلدون قائلا: (إن ابن خلدون صاغ فلسفة التاريخ والحضارة وأسمائها بالعمران، ويعد بلا شك أعظم عمل من نوعه)، ينظر: محمد عزيز نظمي سالم، جدلية التاريخ والحضارة، الإسكندرية، 1996، ص 7.
- 38 - ابن خلدون: المقدمة، ص 547.
- 39 - سعيد الغانمي: العصبية والحكمة، ص 18.
- 40 - ابن خلدون: المقدمة، ص 46.
- 41 - نفسه، ص 16.
- 42 - نفسه، ص ص، 15، 16.